الصاعقة السابعة بعد المئة: الحبُّ ما منع الكلام الألسُنا(*)

الحبُّ مـــا منعَ الكلامَ الألسُنا ... وألذُّ شكوى عـــاشقٍ مـــا أعلَنَا
ليتَ الحبيبَ الهاجري هجرَ الكرى ... منْ غـيـرِ جُرمٍ واصِلي صِلَةَ الضّنى
بتنَا ولوْ حَلّيْـــتنا لمْ تدرِ مـــا ... ألوانُنا مما اســـتُـــفـــعْنَ تَلَوُّنَا(١)
وتوقَّـــدتْ أنفـــاسُنا حـــتى لقـــدْ ... أشـفـقْتُ تحـتـرقُ العـواذلُ بَينَنَا
أفـدي المودِّعـةَ التي أتبـعـتُـهـا ... نظرًا فُـــرادى بينَ زفـــراتٍ ثُنَا
أنكرتُ طارقـــةَ الحـــوادثِ مـــرةً ... ثم اعـتـرفتُ بهـا فـصـارتْ دَيدَنَا
وقطعتُ في الدنيـا الفـلا وركـائبي ... فـيـهـا ووقْـتيّ الضّـحى والموهِنَا
فوقفتُ منهـا حيثُ أوقفَني النَّدى ... وبلغتُ منْ بدرِ بنِ عـمّـارَ المُنى
لأبي الحـسينِ جـدىً يضـيقُ وعـاؤهُ ... عنه ولو كـــانَ الوعـــاءُ الأزمُنَا(٢)
وشـجـاعـةٌ أغناه عنْهـا ذكـرُها ... ونهى الجبـانَ حديثُـهـا أن يجبُنَا
نيطتْ حـمـائلُهُ بعـاتقِ مـحـرَبٍ ... مـا كـرّ قطُّ وهلْ يكرُّ ومـا انثَنى
فكـأنَّه والطعـنُ منْ قُـــدّامِـــه ... مـتـخـوِّفٌ منْ خلفِـه أنْ يُطعَنَا

(*) مناسبة القصيدة: سار بدر بن عمار إلى الساحل، ولم يسر أبو الطيب معه، ثم بلغه أن ابن كروس الأعور كتب إلى بدر يقول له: إن أبا الطيب إنما تخلف عنك رغبة بنفسه عن المسير معك، ولما عاد بدر إلى طبرية ضربت له قباب عليها أمثلة من تصاوير، فقال أبو الطيب هذه القصيدة.

(١) استفع لونه: تغير.

(٢) الجدا: العطاء.

نفتِ التوهّمَ عنه حدّةُ ذهنِه ... فقضَى على غيبِ الأمورِ تيقُّنَا

يتفزعُ الجبّارُ منْ بغتاتِه ... فيظلُّ في خلواتِه متكفِّنَا

أمضى إرادتَه فسوفَ لهُ قدٌ ... واستقربَ الأقصى فثمَّ له هُنَا

يجدُ الحديدَ على بضاضةِ جلدِه ... ثوبًا أخفَّ منَ الحريرِ وألينَا[1]

وأمرٌّ منْ فقْدِ الأحبَّةِ عندهُ ... فقدُ السيوفِ الفاقداتِ الأجفُنَا

لا يستكنُّ الرّعبُ بينَ ضلوعِه ... يومًا ولا الإحسانُ أن لا يُحسنَا

مستنبطٌ منْ علمِه ما في غدٍ ... فكأنَّ ما سيكونُ فيه دُوِّنَا

تتقاصرُ الأفهامُ عن إدراكِه ... مثلَ الذي الأفلاكُ فيه والدُّنا

مَنْ ليسَ منْ قتلاهُ من طُلقائه ... مَنْ ليسَ ممنْ دانَ ممنْ حُيِّنَا

لما قفلتَ منْ السواحلِ نحوَنا ... قفلتْ إليها وحشةٌ منْ عندِنا

أرجَ الطريقُ فما مررتَ بموضعٍ ... إلا أقامَ به الشّذا مستوطنَا

لو تعقلُ الشجرُ التي قابلْتَها ... مدّتْ محيِّيةً إليكَ الأغصُنَا

سلكتْ تماثيلَ القبابِ الجنُّ منْ ... شوقٍ بها فأدرْنَ فيكَ الأعينَا

طربتْ مراكبُنا فخلْنا أنها ... لولا حياءٌ عاقَها رقصتْ بنا

أقبلتَ تبسمُ والجيادُ عوابسٌ ... يخببْنَ بالحلقِ المضاعفِ والقَنَا[1]

---

(١) البضاضة: الرقة في الجلد.

(٢) الخبب: ضرب من المشي.

عـقـدَتْ سنابكُها عليـها عِـثْـيَـراً ... لو تبـتـغي عنقًـا عليـه لأمكَنَا

والأمـرُ أمـرُك والقلوبُ خـوافقٌ ... في مـوقفٍ بينَ المنيـةِ والمنى

فعجبتُ حتى ما عجبتُ من الظُّبى ... ورأيتُ حـتى مـا رأيتُ منَ السّنى

إني أراكَ منَ المكارمِ عـسكَـراً ... في عـسكَرٍ ومنَ المعـالي مَـعـدِنَا

فطنَ الفـؤادُ لما أتيتُ على النوى ... ولما تركتُ مـخـافـةً أن تَفطُنَا

أضـحى فـراقُك لي عليـه عُـقـوبةً ... ليس الذي قـاسـيتُ منه هيّنَا

فاغفرْ فدى لك واحبني منْ بعدِها ... لتـخُـصّني بعطيّـةٍ منهـا أنَا

وانهَ المشـيـرَ عليكَ فيّ بضلّةٍ ... فـالحـرُّ ممتـحَنٌ بأولادِ الزّنَى

وإذا الفـتى طرحَ الكلامَ مـعـرِّضًـا ... في مـجلسٍ أخـذَ الكلامَ اللّذ عَنى

ومكايدُ السـفـهـاءِ واقـعـةٌ بهمْ ... وعـداوةُ الشـعَـراءِ بئس المُقـتَنى

لُعنتْ مـقـارنةُ اللئـيم فـإنهـا ... ضيفٌ يجرُّ منَ الندامةِ ضيـفَنَا[1]

غـضبُ الحسودِ إذا لقيتُك راضيًـا ... رُزْءٌ أخـفُّ عـلـيّ مـنْ أنْ يُـوزَنَـا

أمـسى الذي أمـسى بربِّكَ كـافـراً ... منْ غـيـرنا مَـعَنا بفـضلكَ مُـؤمِنَا

خلتِ البـلادُ منَ الغـزالةِ ليلَهـا ... فـأعـاضَـهـاكَ اللهُ كي لا تحـزَنَا

(١) الضيفن: الذي يتبع الضيف.